توجه الإنسان

فكر وتدبر يا أيها الإنسان ، ما موقعك فى هذا الوجود وإلى أين المصير؟ فى كل شيء تجد أيات الإحكام تمجد ربها ، ﴿... **مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ** ... ﴾ الآية 3 – سورة الملك. فالكون كله نظام منطقى متناسق بالغ التنظيم والإعجاز ، لا مجال فيه للفوضى أو العبث أو ما يسمى بالصدفة ، بل كل شيء وُجد بقدر ، فمن استقام مع نسق الكون وسننه ومنطقه وجد الحياة متكاملة مُيسرة ، وتنكشف له الحقائق المنطقية ، وتبرز لديه قيم العدالة والمساواة ، ويتسع عقله للفكر الكونى البديع ، ويأتى حكمه على الأمور مبنيا على الحقائق بعيدا عن الأهواء وخاليا من آثار التعصبات ، فتطمئن نفسه وتقر عينه. أما من اتبع هواه ، واعتمد على قواه واعترض على شرع الله ، فلا بد من أن يصطدم بما لا طاقة له به وعندئذ تكون خسارة النفس مؤكدة ، ولا يفيد الندم.

سبحان الذى خلق الإنسان وفضله على كثير من خلقه ، **ويخلق ما لا تعلمون.** هذا الرقى الذى هيأ الله أسبابه للبشر هو قمة فى دقة وإحكام وإبداع التركيب – **فتبارك الله أحسن الخالقين** – ولا يليق أن يعلو هذا الإنسان البديع الخِلقة عقل غير سوى – بسبب جهل وتقصير الإنسان – فالعقل أثمن ممتلكات

الإنسان وبه يمتاز عن غيره من المخلوقات التى وإن امتلكت سعة الإدراك فقد لا تملك نفس القدر من الاختيار كما هو حال الملائكة.

وحين نتفكر فى أى شيء منسوب للرحمن نجد إعجازا ، حتى الجملة من كلامه آية ، بل والكلمة الواحدة ذات إعجاز وقدرة ؛ فيكفيها عظمة شرف انتسابها إليه - **ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك.** كل شيء عالَم متكامل وليس كاملا ؛ لأن الكمال له وحده جل شأنه. ابتداء من الذرة وما دونها حتى المجرة وما فوقها منتهى دقة التنظيم والإحكام ، سنن ونواميس وتوازنات ، وهو وحده رب كل شيء ومليكه. كل شيء عالَم ، الذرة عالَم ، النبات عالَم ، الحيوان عالَم ، الشمس والقمر والنجوم عوالِم وكل **فى فلك يسبحون** ، ثم نفس الإنسان هذا العالَم العجيب. وكم من عوالم فى ملكه وهو وحده رب العالمين **، وفى الأرض آيات للموقنين.**

لا نملك من القدرة ولا من الوقت ما يمكننا من التفكير فى كل العالمين ، إذن فلنبدأ بعالمنا ، عالَم الإنسان والنفس البشرية ، ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ** ﴾ الآية 21 - سورة الذاريات. ربنا ها نحن أولاء نحاول الإبصار **وإياك نستعين.** نتأمل عالَم الإنسان ، نجد فيه أنهار الدماء تجرى فى العروق ، والبول ينساب فى مجاريه ، الغازات لها مداخلها ومخارجها ومساراتها لتؤدى دورها المرسوم فينا دون أن نعرف كيف! الكل يؤدى وظائفه بقوانين وتوازنات من

خلق الله وهداه ، جل شأنه. عمليات الطحن والعصر والتفاعلات والضخ والشفط والطرد والتكييف والإشعاع والتسييل والتجميد والترشيح والتنقية ، مجمعات وظيفية متسامية ، تناغمت فى تسبيح خالقها وبدون حاجة إلى إدارة أو حساب. ترى الهياكل والأجهزة المعلقة والاتصالات راقية التوافق ، وترى الخلع والزرع (الشعر مثلا) والضرع والفرع والأصل والفصل. ترى الطفيليات والمساعدات والهدم والبناء والموت والحياة ، ترى كل مقومات وصفات العالَم تتمثل فى مخلوق واحد - **لا إله إلا الله**.

تأمل الإنسان

ذلك المخلوق العجيب الذى يبيت برأى ويصبح برأى آخر ، بل يبيت بجسم ويصبح بجسم مختلف ، إن الصديق أو القريب الذى تقابله بعد غياب طويل لن تجد به خليه واحدة باقية - على حالها - منذ آخر مرة قابلته فيها ، إنه بناء آخر لم يبق فيه إلا العقل الذى يعرفك رغم تغير ذلك العقل ، ورغم أن جسمك وجسمه قد تغيرا إلا أن مكانك عنده محفوظ! مما يؤكد أن العقل أبقى من مادة الجسد وأن المعنى أبقى من المبنى. الإنسان ذلك المخلوق الذى وهبه الله القدرة على تطوير نفسه وحياته ، فإنسان اليوم يختلف عن إنسان الأمس ، وإنسان الغد يختلف عن الاثنين. وأساس هذا الاختلاف هو العقل الذى تميز به الإنسان على الكثير من مخلوقات الخلاق العليم. هذا المخلوق تجرى عليه أقدار وله فى شئون حياته وسلوكه اختيار.

بالعقل يتعلم الإنسان ويقرر ويتصرف ويختار ويتعامل مع الأسباب للوصول إلى النتائج المرجوة ، فيصيب ويخطىء ويتعلم ويطور ويتطور فى حدود المستطاع. وأرقى ما نراه فى الإنسان هو ارتفاع درجة تلقائيتة (Autonomy) ، أى ذاتية الحركة والقرار والاختيار ، ومن هذه النعمة تنبع الحرية. فالقدرة على التنقل والانتشار الحر لا يملكها الجماد ولا النبات والقدرة على الاختيار والتقرير وبعد النظر وقوة الذاكرة كلها إمكانات لا تملكها العجماوات ، وهذا القصور فى الجماد والنبات والحيوان مقصود ؛ لحكمة التسخير ، فلو كانت هذه المخلوقات تتمتع بالاستقلالية التى يتمتع بها الإنسان لما كان هناك معنى للتسخير ولحدث الصراع المدمر بين الإنسان وبين باقى المخلوقات ، لكن من لطف الله أن هذا الصراع محصور بين الإنسان والشيطان فقط.

لقد أودع الخلاق العليم فى الإنسان الغرائز الطبيعية التى تحركه تجاه ما يحتاج ، وتشعره بالحاجة لمقومات حياته ، وجعل الميل الغريزى كمؤشرات طلب ، كالشعور بالجوع والعطش والبرد والحر والتعب وغيرها. أما العاطفة الدافعة للإبداع أو الإقدام فيلزمها دوافع معنوية تشحن العقل بالرغبة فى تحقيق شىء ما أو الوصول إليه. وهذا الشحن لا يشترط أن يكون عقلانيا بل يمكن أن يكون نفخا فى الذات أو فى العقد أو الغرور والكبر وجنون العظمة وما شابه ذلك من الرذائل. أما العقل المستقيم فالتعامل معه يكون بالبرهان والمنطق والتبيين والترغيب فى حسن الجزاء ، والتحذير من سوء العاقبة ، فهكذا يكون التعامل

مع العقل وهذا هو نهج كل رسالات الهداية ، خطاب واضح للعقل الفطرى السليم.

وقد شاءت حكمة العليم الخبير أن يكون هناك خلق وهداية ، شيئان مميزان ، ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ الآية 50 - سورة طه. ورغم أن لديه - سبحانه وتعالى - ما يشاء من البدائل ، لكن هكذا شاء وهكذا قدر ولا معقب لحكمه ، الخلق شيء والهداية شيء آخر يتلوه ، ربما يقول قائل: هناك تكامل أو تداخل أو غير ذلك فليكن ، لكن لابد أن نميز هذا عن ذاك ؛ ليتيسر لنا قدر من الفهم. هَكذا شاءت حكمته ، فخلق بلا هداية يعنى الضلال ، والعقل بذاته لا يمكن أن يتوصل للعلم الميتافيزيقى. والهداية تُطلب ، تطلب من الله - الرحمن الكريم - وحده ، **اهدنا الصراط المستقيم**. وشعور الإنسان بذاته وبأن خلقه قد تم ، ذلك لا ينفى حاجته المستمرة للهداية.

ولنتأمل الآيات : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرءَانَ ، خَلَقَ الإنسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ ، لا نفسر ولكن نتأمل وقوع آية خلق الإنسان بين تعليمين ، تعليم القرآن وتعليم البيان ، ونتأمل مصدر التعليم منه جل وعلا. ولا نخلط بين الهداية والتعليم. تعلم القرآن وتعلم البيان يكون عن طريق العقل ، لكنه من مصدر علوى ، وكل من عمليتى التعلم والاهتداء للعقل دور فيه وإن قل ؛ فالتعليم والهداية يمران لجميع الجوارح من خلال العقل. أما عملية خلق الإنسان فليس للإنسان

دور فيها ؛ لأنه لم يكن له فيها وجود مسبق أو حضور إدراكى ، ولذلك فالخلق نموذج للإبداع الإلهى المحض.

أما حسن سلوك الإنسان فرهن بإخلاص التعلم وتقبل الهداية ، وفى المقابل فالتكبر على طلب الهداية لا بد وأن يضر بسلامة العقل. وما الخلل الموجود فى حياتنا إلا بسبب خلل فى العقول التى أبت تقبل الهداية ، ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً** ﴾ الآية 124 - سورة طه. وما اضطرابات حياتنا إلا بسبب اضطرابات العقول بسبب رفض الهداية. وحال المجتمع البشرى هو حصيلة حال عقول أفراده ؛ لأن نوعية المجتمع مبن صنع أفراده ، بوعى أو بدون وعى.

التحكم فى الإنسان

معلوم أن الحيوانات - وفى مقدمتها الإنسان - لكل فرد منها نظام تحكم خاص يستجيب للمؤثرات بطريقته وله احتياجات ملحة ورغبات متنوعة ؛ بسبب نقصه وضعفه. وفيما يختص بالإنسان فعقله هو الأرقى فى دنيا الحيوانات ، ولذلك فقد تيسر له السيطرة عليها ، ولكن السيطرة عليه هو أصعب ما يكون ؛ لتميزه بعقل ومقدرة على التصور والتفكير ثم التصرف الذاتى. إذن فالعقل هو للإنسان نعمة ولكنه لمن يحاول السيطرة عليه (من خارجه) يمثل عقداً شديدة التشابك والتنوع الذى يأبى النظرات السطحية والنظريات التقليدية الضيقة ،

بيد أن التشويش على العقل ينهكه ويشل مقاومته ، فالعقل البشرى مستهدف ، لا لذاته ولكن تحجيما لقدراته.

وللتحكم فى الإنسان يجب أولا معرفة من هو الإنسان وما دوره فى هذه الدنيا؟ فمن المستحيل التحكم فى المجهول! ومن السفه السير نحو المجهول! ومن المعلوم أن الإنسان خلق بيد الله من الطين ونفخ الله فيه من روحه وعلمه الأسماء كلها ؛ ليكون خليفة عن الله فى الأرض ، ووظيفته الرئيسية هى عبادة الله ، ومن هذه الوظيفة – وفى إطارها – تتفرع مختلف نشاطات الحياة. وقد وفر الله للإنسان سبل الهداية المتواصلة بفطرة مؤمنة ووحى ورسالات وكتب وعقل وعلامات يرتكز عليها العقل. وإغفال هذه المعلومات والنعم أو تجاهلها أو محاربتها بالتشويش عليها يعد جريمة كبرى ويجعل العقل مجرد آلية تضليل بدلا من أن يكون وسيله هداية. ومثل هذه النعم والمعلومات النورانية لا بديل لها ، ولا مصدر صحيح لها غير المصدر الإلهى ، لأن الإنسان لم يشهد عمليات خلق السموات والأرض ولا خلق نفسه ؛ وعمليات الخلق هذه ليست انعكاسية (Reversible) حتى يمكن الرجوع إليها عكسيا واستنتاج كيفيتها وتبديلها. وأبرز ما شهده الإنسان هو بعض (أو معظم) مراحل تكوين واستخدام عقله (وليس مُخه) وعلى ذلك (العقل) يكون الحساب ، والله أعلم.

مما سبق تتضح الأهمية العظمى للعقل البشرى وأنه مركز الثقل المعنوى للإنسان ومنه تنطلق الإرادة ، وبه يكون التوجه. وهندسيا ، يبلغ التحكم مداه حين

يوجه التأثير إلى مركز الثقل مباشرة ، ما عدا ذلك يحدث دورانات وتحركات يصعب السيطرة عليها بدون ثمن مكلف. وخلاصة القول هنا أن المَدخل الأمثل للسيطرة على الإنسان يمر من الداخل (من القلب) وليس من الخارج (بالإكراه). فمن الخارج يمكن أن يساق الإنسان قهرا إلى أن يجد فرصة للزيغ أو التحايل أو الهرب ، أو يتمكن من المقاومة أو الكيد أو الانتقام. أما عن طريق القلب فيأتى الإنسان طائعا مقبلا فرحا متحمسا وراغبا فى تنفيذ ما يطلب منه والتضحية بما يملك. والعجيب أن ينطبق ذلك على الجمادات أيضا ، ويتضح ذلك من قول الخلاق العليم : ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾ الآية 11 - سورة فصلت.

إذن من هنا - من الداخل - نبدأ لتنظيم وترقية الحياة البشرية ، من العقل المبصر ؛ فأى سبيل بشرى لا يمر بالعقل لا يكون هو الطريق الصحيح ، بل يكون مكلفا فى الحاضر وخاسرا فى المستقبل وبئس الطريق. نبدأ بتبصير العقل للوصول إلى المستوى الذى يتسق مع النسق الكونى الملتزم ، ويتمتع بأكبر قدر من الاستقلالية والتحرر الواعى ، وإدراك ما يدور حوله دون أن يضيع منه الهدف أو يضل الطريق إليه. فالعقول المبصرة مبدعة ولا تُرهق إمامها ، أما العقول العالة التى تدار بالوكالة فهى عبء على قيادتها ، متعثرة فى خطواتها ، تنهار عند مواجهة الشدائد وتتشتت وتسترخى حين يخمد سوط السائق.

الأُمَّة

الأمة لغة تعنى الجماعة التى تجتمع على شىء أو يجمعها شىء ، وقد يرجع معنى الإمامة إلى وجود إمام ، أى نموذج متميز يُقتدى به أو يُرجع إليه ، فالمتر إمام فى قياس المسافات ، والجرام إمام فى حساب الكتل ، والثانية إمام فى حساب الزمن ، وكتاب موسى – عليه السلام – إمام بين الكتب المقدسة التى سبقته ، وهكذا. والإمامة قيمة ذات طابع معنوى مقنع أكثر من ماديته ، ولذلك فلا يشترط فى الإمامة توفر السلطة – أو القيمة – المادية. والإمامة بين البشر غالبا ما تبدأ بالإعجاب ، فإعجابك بمفكر معين قد ينمو حتى يصير هو إماما لك ويصبح له عليك نوع من السيطرة المعنوية أو الروحية دون أن تدرى.

ورغم وجود تعريف مثالى للإمام وهو : "معلم الناس الخير" ، إلا أنه فى الواقع لا يشترط فى الإمامة الصلاح ، بل تجد فى الإمامة النقيضين وما بينهما ، فتجد أئمة للهدى وللإيمان وللعدل وتجد أئمة للضلال وللكفر وللظلم والإفساد فى الأرض، وبين ذلك تجد أئمة للرقص واللعب واللهو والتجارة والصناعة والجودة والزراعة والشِعر والأزياء..... إلى آخر ما يخطر ببالك من مجالات ، حتى الكتب لها أئمة : ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾ الآية 17 – سورة هود. والإمام البشرى – فى الغالب – يكون صاحب دعوة أو مذهب أو قضية أو طريقة أو مدرسة علمية أو فكرية وما شابه ذلك من المعنويات.

معنى الأمة ينشأ – فى الغالب – بوجود إمام (أو قاسم مشترك) ويختفى باختفاء تأثيره من نفوس أتباعه ، أو حين ينفضوا من حوله ؛ بسبب فقده لمقومات الإمامة. وقد قال ربنا فى محكم التنزيل : ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ الآية 120 – سورة النحل. وتلك هبة من الله لإبراهيم – عليه السلام – إذ يقول عز من قائل : ﴿ **قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً** ﴾ الآية 124 – سورة البقرة ، هكذا جعله الله ، فصار إبراهيم – عليه السلام – إماما ولا يلزمه أتباع لكى يكون أمة ، فهو وحده إمام وأمة مع أبوته للأنبياء – عليهم جميعا صلاة الله وسلامه.

وجدير بالذكر أن العجماوات أيضا فيهم أئمة وأمم. قال تعالى: ﴿ **وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ** ﴾ الآية 38 – سورة الأنعام. كل ما له عقل يستجيب للإمامة بفطرته إن وجد الإمام المُقنع ، فتجد أسراب الطيور والأسماك والنمل وغيرها. فالأمة هى إمام وفكر وأتباع ، بشرا كانوا أم جانا أم غير ذلك. هذا لمن يريد الموضوعية الخالصة فى التعامل مع الأشياء بعيدا عن الأقنعة والأغطية السياسية والمخادعات غير المجدية ، لمن عقل.

ومقومات الإمامة معنوية ، وبالإمامة تنتظم تلقائيا جموع القلوب ، لذلك فهى فوق مستوى الجنس واللون والمكان والزمان ، فإمامة خاتم المرسلين – صلى الله

عليه وسلم - ضمت بلالا الحبشى ، وصهيبا الرومى ، وسلمان الفارسى ، والمهاجرين والأنصار وغيرهم ، وشتى قبائل العرب والعجم من مشرق الأرض إلى مغربها كالبخارى والترمذى والرومى والأندلسى والألمانى والبوسنى والأمريكى والاسترالى والشيشانى .... وكل أجناس البشر وإلى قيام الساعة ، فى نسيج أممى يجمعه مصدر الهدى والنور ، ويسلم قلبه لرب العالمين، ويستوى عنده النصر والشهادة ، ويضع الدُّنيا فى المستوى السفلى الذى قدّره العليم الحكيم.

قد يوجد مجموعة أئمة فرعية - عقلاء - ولكل منهم أتباعه ويجمعهم الإمام الأكبر فهذا وارد وقائم فى أكثر من مكان وزمان. أما حين يتعارض الأئمة فيما بينهم فغالبا ما يحدث الصدام بين أتباعهم ، والكل خاسر فى هذا الصدام ، ولا يمكن أن تنهض حضارة فى مثل هذا المناخ. وتضمحل الأمة وتضعف حين تحيد عن فكر ومبادىء إمامها لأى سبب من الأسباب ، كأن ينكشف زيف الإمام أو يثبت عدم صحة توجهاته أو يتم تحريف تلك التوجهات بمرور الوقت أو بغرض الكيد له. ويخبرنا ربنا بفترة من فجر تاريخ البشرية إذ يقول : ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَبِيينَ** ﴾ الآية 213 - سورة البقرة. وعلى سبيل المثال ، رسول الله موسى عليه السلام كانت له أمة (أتباع) ، لكن الوضع تغير منذ زمن ، ورسول الله عيسى - عليه وعلى أمه الطاهرة أفضل الصلاة والسلام - كان له أنصار وأتباع ، ولكن الوضع اليوم غير الوضع عقب فجر الميلاد الشريف. وخاتم المرسلين - صلى الله عليه وسلم - كان له أنصار

وصحابة وبعد ذلك أتباع ، وصفهم ربهم قائلا : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ الآية 110 - سورة آل عمران ، فحدد سبحانه وتعالى شرط الانتساب للأمة وسبب خيريتها الذى لا علاقة له بالجنس ولا اللون ولا النسب ولا الوطن ، لكنه العمل ... العمل. فمن لا يتبع سنة الإمام - صلى الله عليه وسلم - ولا يتحمس لتطبيق شريعته ولا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر ، فبأى بجاحة عقلية يدعى الانتساب لهذه الأمة!!

الإمام تقع عليه مسئوليات أدبية تجاه أتباعه ولكن حين يجدُ الجد لا يحمل عنهم شيئا ، ففساد أئمة الضلال لايعفى أتباعهم من العقوبة ، ولا بد من أن يدفعوا ثمن تسليم أنفسهم وعقولهم لمن ليس أهلا لحمل الأمانة ، أو لمن يتاجر بهم ويثرى على حسابهم ويعمل لأغراض شخصية (خافية) أو حتى عامة ولكنها فاسدة وشطانية. فكل إنسان قد وهبه الله عقلا خاصا يبحث بفطرته عن خالقه ، ويؤدى به وظيفته التى خُلق لها ، ولكن التكاسل وحب الشهوات والتعصب والكبر يعمى الإنسان عن طريق الحق.

بمفهوم الإمامة الذى أوضحناه قبلُ ، يمكن أن يوجد فى الشعب الواحد (أو القوم) عشرات الأمم فى نفس الوقت. وعند العقلاء فالاختلاف فى الرؤى مفهوم - لتباين العقول - ولا يُفسد للود قضية ، ورفض الآخر بدون سبب حماقة لا تليق بالعقلاء ، وهذا هو هدى رب النّاس أجمعين: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللهُ

عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الآية 8 - سورة الممتحنة ، والحساب عنده وليس عند البشر.

والأمة تكون على شاكلة إمامها ، وخيرية الأمم ليست حكرا على شعب ولا جنس ولا قوم كما ذكرنا ، لكن الخلاق العليم يحدد شرط الخيرية - في أمة الإسلام - في الآية 110 من سورة آل عمران السابق الإشارة إليها : وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد الإيمان ، فإن انتفت هذه الصفة تخرج الجماعة تلقائيا من الأمة ؛ بسبب تفريطهم في هدى إمامهم. فليس كل جموع مسلمي اليوم من أمة خاتم المرسلين - صلى الله عليه وسلم - بل قلة منهم هي التي تنال هذا الشرف ، القلة التي تطيع ربها إذ يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ الآية 21 - سورة الأحزاب.

والآيات الكريمات التي تبلور معاني الإمامة والأمة عديدة وقد لا يكون هذا الكتاب هو المناسب للتوسع في هذا الموضوع ، ولكن نرجو من أولي الألباب أن يبينوا للناس وجوب مراجعة فهم مصطلحات شائعة مثل: "الأمة العربية" ، و "عنصري الأمة" ، وكذلك عناوين الموضوعات المضللة مثل: "أسباب تخلف الأمة الإسلامية"! ؛ فالتخلف يستحيل أن يكون صفة أمة خاتم الأنبياء والمرسلين

– صلى الله عليه وسلم – بل هو صفة من فرطوا فى حمل أمانة الدعوة الإسلامية – فخرجوا من الأمة – وما زالوا يحملون أسماء إسلامية ويعيشون فى أراض شهدت مجد الإسلام فى يوم من الأيام.

أمة الإسلام بخيريتها الأبدية هم صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين – ولا نزكى على الله أحدا – هؤلاء هم مصابيح الهدى. ولا تجد إنسانا واعيا ملتزما ومتمسكا بهدى رسول الله وسنته يمكن أن يوصف بالتخلف ، ربما يُبتلى بمحيط سيء أو بظلم الطغاة ، لكنه يظل مضيئا وسط الظلمات. أما مئات الملايين من المفرطين الذين اكتفوا بحمل وثائق وهويات إسلامية فحسابهم على الله. وهذا الفهم العام – من جانب من ليس بفقيه – لا علاقة له بدعاوى التكفير ومخططات التمزيق الآثمة ، فالفرق بين التفريط والخروج من الملة واضح لكل ذى عقل.

أما الأحزاب السياسية التى شاعت كبدعة سياسية عصرية فلا ينطبق عليها مفهموم الأممية ؛ لأن السياسة لها أقنعتها وتكتيكاتها وأساليبها الميكيافيلية والخفية. والنهضة الحضارية المستنيرة المطلوبة لا يمكن أن تقوم إلا على أسس علمية نيرة وحقائق طبيعية راسخة ؛ لتحقيق أهداف سامية واضحة ومفهومة ومقنعة. أما الشعارات والصراعات وكسور الحلول والمداهنات والمسكنات الخادعة ، كل ذلك لا يمكن أن يكون أسس حضارة إنسانية.

القوامة

ربما يكون أصل القوامة وجود قَيِّم بارز – بين أفراد الجماعة – بأسباب مادية توفرت له فيصبح وله سلطان على من حوله فيكون هو القيم وهم القوم. فيقال إن الرجل قيم فى بيته ، والناظر قيم فى المدرسة ، والوزير قيم فى وزارته ، والحاكم قيم فى دولته. ويلاحظ أن القوامة ذات طابع مادى أكثر منه معنويا ، لذلك لا يشترط فيها الاقتناع أو الإعجاب أو الرضا ؛ فالقيم يملك سلطة فرض الأمر داخل حدوده ، وهذا فى حد ذاته قد يكون كافيا لإبعاده عن القلوب بدرجات متفاوتة.

يقال قوم فرعون وقوم تبع ، وقد ينسب الناس ظاهريا إلى من لا قوامة له عليهم ولكن بسبب تعدد القوامة لدرجة عدم بروز قيم يستحق الذكر فينسبون لعلم بارز دون أن يكون له قوامة عليهم ، كقوم نوح وقوم لوط عليهما الصلاة والسلام. ويفهم من ذلك نفى إمامة نوح ولوط لهؤلاء الناس الفاسدين ، رغم كونهما عليهما السلام من أعلام الأئمة ، فكل منهما إمام لمن اتبعه فقط ، وكذلك قارون لم يكن من أمة نبى الله موسى – عليه السلام – لأنه لم يتبعه ، بل **كان من قوم موسى** ، بنص القرآن الكريم.

ويتحقق للقائد قمة التأثير (الزعامة) حين تتوفر له الإمامة والقوامة معا. عندئذ تتحرك الجماهير (أو الأتباع) معه – كالطوفان – لتحقق ما يسمى مجازا

بالمعجزات ، ولا يشترط أن تكون كلها معجزات سامية ، بل قد تكون لصوصية أو احتلالا أو بلطجة ، وقد تكون إصلاحا وحضارة وخيرا وإعمارا ، وإحقاق حق أو نصرة مظلوم. وحين تتعارض القوامة والإمامة يبدأ الصراع المادى-المعنوى ، فأحيانا تجد الرجل قيما فى بيته دون أن يكون إماما وهنا لا مفر من حدوث متاعب ، وتجد للشعب حاكما واحدا وعدة أئمة يعارضونه ويتعارضون فيما بينهم ، وفى هذه الحالة لا مفر من الصراعات الجلية أو الخفية أو كليهما ، فتجد الجندى فى صراع داخلى ؛ لأن قلبه مع الإمام وسيفه مع الحاكم.

الحرية

قضية الحرية تلك النعمة التى منحها الله للإنسان - بضوابط - تكلم فيها المتكلمون على مر العصور وما زالوا وسيظلون يتكلمون - متباعدين ومتصارعين - فى مختلف جوانبها الشخصية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والدينية. ولو تجرد المتكلمون من الأهواء والتعصبات لأتيحت الفرصة للعقل المنطقى أن يستشف معالم الحرية بنزاهة - فى حدود ما شرع العليم الحكيم - ولضاقت شقة الخلاف بينهم ، لكنها الأهواء! وكثيرا ما نسمع كلاما مبتورا أو مزورا عن الحرية ، رغم أنها من أسمى المعانى الإنسانية التى منحها الخالق للإنسان. ولكن هذا المعنى السامى لا يبرر إطلاق الحرية بلا

صوابط ، وإلا دخلنا فى محيط الفوضى الهمجية وضيعنا معنى العقل وألغينا وظيفته الرقابية وسلمنا القيادة للشهوات والأهواء العمياء.

لا بد من التمييز ومراعاة الضوابط (الحدود) فلا نتجاوزها ؛ لكى لا ندفع الثمن غاليا بدون ضرورة. فيجب تمييز الروح من الجسد ، والعقل من الجنون ، والترويح من المجون ، والضروريات من الكماليات ، والعقليات من الشهوات ، والنظر من البصيرة. بعد ذلك سنجد أن حرية الجسد بطبيعتها محدودة ومحكومة ، فمثلا لا تملك المعدة أن تعتذر عن الهضم اليوم ، ولا تملك الرئة حرية رفض التنفس ، ولا يملك الجسد أن يطير بذاته فى الهواء وحين يحاول القفز لابد من العودة للأرض ، كذلك الشهوات لا يمكن الاستمرار فيها بلا انقطاع ؛ فهى قريبة الشبه من القفزات ، ومقيدة بالطبيعة الثقيلة للجسد ، وتصطدم برغبات وشهوات وحقوق الآخرين. لذلك فالمغالاة فى الحديث عن حرية الجسد يعد ضلالا وخللا فى التفكير.

أما بالنسبة للروح والعقل بمجاليهما فلا يشاركك فيهما مخلوق ، فحدّث عن حريتهما الفسيحة ولا حرج ، حيث لا يوجد لهما أثقال بل طبيعة شبه كهربية-أثيرية تسرى وتطير فى فضاء فسيح ، هنا تبلغ الحرية أقصى مداها ، ولكن تنتكس حرية العقل حين ينشغل بتحرير ما لايمكن إطلاق تحريره كالجسد وشهواته ، لذلك يجب الحذر من الخلط ، يجب أن نميز أى حرية نريد؟ فإن كانت الإباحية فالعاقبة وخيمة والطريق مكلف جدا بل مدمر. وإن كانت

الحرية فى فهمك تعنى إمتاع جسدك (إشباع رغباتك) على حساب أبدان الغير وحقوقهم ، فبئست الحرية ولعن الله الظالمين. لقد حدد الله للإنسان حدود حريته ، وبين أنه لايجوز للإنسان إفساد أحد أعضائه ولا التصرف فيه بدون ضرورة ؛ لأن المالك الحقيقى هو الله. فكيف يجيز الإنسان لنفسه الجور على الآخرين؟

لا يجوز للإنسان أن يغيب عقله عمدا - بشرب الخمر أو تعاطى المخدرات والمكيفات وكل ما يؤثر على الوعى والذاكرة ، ولا يجوز للإنسان أن ينفق ماله فى المفاسد ولا أن يحرقه ولا أن يسرف فى إنفاقه. رغم أنه مال الإنسان (ظاهرا) إلا أن الحقيقة أنه مستخلف فيه - لا يملكه ملكية مطلقة - والمحاسبة الدقيقة على الله ، أما إذا تجاوز فى الظاهر حدود المعقول فيجب الحجر عليه ؛ لأنه بذلك يفتح أبواب الفساد وسط المجتمع الذى يعيش فيه. وينطبق هذا المثال المادى على المسائل المعنوية أيضا.

وحين تجلس فى أحد المقاعد بجوارى فليس من حقك أن تؤذينى بدخان سيجارتك ، ولو اتسع أفقك فسوف تدرك أن دخان سيجارتك يؤذى الآخرين حتى البعيدين عنك فنحن جميعا شركاء فى حق الانتفاع بالهواء الجوى العام. فما بالك بالتفجيرات والتجارب النووية! إن رفع أصواتك يؤذى مسامعى ، فإن كان هذا الرفع لضرورة طارئة فسأصبر احتسابا وتقديرا لعذرك ، أما إن

كان بدون ضرورة فلا يحق لك ذلك باسم الحرية المفترى عليها. هكذا يتبين أن الحرية فى مجال المادة يجب أن يكون لها ضوابط ، الحرية نظام والتزام.

أما فى عالم المعانى فالمجال أرحب كثيرا ، لقد خير الله الإنسان بين الإيمان والكفر وترك له حرية أن يؤمن أو يكفر ؛ لأن الله - جل شأنه - غنى عن العالمين ، ولكنه بين أن للإيمان ثمارا عظيمة وللكفر عواقب وخيمة. ولا يوجد قضية أشد أهمية وخطرا من قضية الكفر والإيمان ، فكل القضايا تأتى بعد ذلك. لقد قرر الخلاق العظيم هذه الحرية وما يليها من حريات شخصية وبين أن هناك حدودا وحسابا ، ينفرد الله به ؛ لأنه وحده الأعلم بالقلوب وما تخفى الصدور. فالحرية الفكرية مكفولة فى الدنيا إلى حد الكفر (الشخصى) وبئس الحد ، وحرية الكفر لا تشمل حرية نشره ؛ لأن فى ذلك تغريرا وإضرارا بالأبرياء. وأيضا فى ميدان الرأى والفكر يجب تمييز حرية إبداء الرأى من حرية نشر الجهل. وبعد الكفر أو ما دونه فى المجال الفكرى - والعياذ بالله - لا يحق للشخص أن يتجاوز الحدود فى المجال المادى ، فلا حق له فى السرقة ولا الزنى ولا القتل ولا الجرح ولا قطع الطريق ..... إلى آخر معزوفة الشر ؛ لأن فى ذلك ظلماً للآخرين ، فإن تعدى وفعل وجب على ولى الأمر الضرب على يده.

الحرية معنى وشعور يحسه الإنسان بالفطرة ، إن لم يكن من أصل الفطرة ، شعور يُمَكّن من إطلاق حرية الفكر الرشيد ، وليس السفيه. فالإنسان له

مطلق الحرية فيما يدور فى ذهنه ما لم يخرج على صورة قول أو فعل ، فالإنسان سيد الكلمة ما لم يقلها ، والحرية القلبية (العقلية) حسابها عند الله فليس فى مقدور البشر ذلك ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ولكن تبرز سفاهة الطغاة حين يحاسبون الناس قهرا على ما فى نفوسهم. وكم من المنافقين عاشوا وماتوا بنفاقهم الخفى دون أن يضبطهم أو يتعرض لهم بشر ، ومادام الأمر خفيا فحسابهم على الله ، وليس للحاكم العاقل أن يأخذ موقفا من إنسان على ما يظنه فى دخيلة نفسه أو يأخذ الناس بالشبهات. أما عندما يُترجم ما فى العقل إلى قول أو فعل – فيه شذوذ أو خروج – فعندئذ يجب أن يخضع صاحبه للمحاسبة المنصفة من قبل أولى الأمر ، وقبل أن توجد المحاسبة المنصفة على المستوى البشرى خصوصا فى الأمور المعنوية المرتبطة بعمق النفس البشرية وما فى الصدور. وحين يتجاوز الشخص حدود المعقول فى فكره المعلن أو أفعاله الظاهرة ويصل إلى حدود السفاهة الفكرية ، فيجب الحجر عليه كما يتم الحجر على السفيه الذى يبدد ماله أو يؤذى نفسه. إذن فليحذر العاقل وهو يعبر عما يدور بعقله قولا أو فعلا ، يحذر الوقوع فى حدود السفاهة الفكرية ، ويحذر العبارات الملتوية والأفعال المشبوهة.

الديموقراطية

الديموقراطية نغمة العصر ، والملجأ الموهوم للتحرر ، وأنشودة أصحاب المصالح التى تحتاج لسواتر مزينة وخادعة ، ومن يريدون المروق من طاعة الله ، الذين

يبغونها عوجا وأشتاتا. وحتى لا يساء الفهم ، فما يسمى بالديموقراطية ليس مقابلا ولا بديلا وحيدا للدكتاتورية – الملعونة – بل هى صورة ملساء ناعمة للدكتاتورية ، لذلك فهى أقل قبحا ويجدى فيها التزيين إلى حين. الديموقراطية فى أحدث صورها المعاصرة تعنى طغيان جماعة (أو طائفة) على بقية الجماعات ، فكيف تكون الحرية وأين العدالة!

الديموقراطية فكرة بشرية قديمة قابلة للتطور فى التطبيق ويمكن أن تنافسها عشرات الأفكار البشرية الأخرى فى ذلك ، ولكن التصاق الديموقراطية بدول الطغيان فى العصر الحديث أكسبها بريقا زائفا وزينة تحاول بها ستر نقائصها فى مواجهة بدائل لا يسمح لها بأن ترى النور. يحدث ذلك تكبرا وتجبرا وتعصبا فكريا. وتحت هذا الستار الخادع يستباح امتصاص دماء المستضعفين والأقليات وتجد من يقول بأن للديمقراطية أنيابا! ولا مانع من وجود مخالب لاصطياد الفرائس الضعيفة مع توفير المبررات الفلسفية ، أو حتى بدون مبررات!

الديموقراطية بدون تبصير العقول تعنى التحرك الجماعى فى ظلمات الجهل ، ففى الظلمات تكون التحركات على حسب تأثير أعلى الأصوات التى تهب من جهات شتى ومتناحرة ، فترى تصارع ما يسمى بالأحزاب وبعضها يكون فى حقيقته عصابات ، فترى للمال سلطانا على حساب القيم والمبادىء وترى للقوة طغيانا على الحق ، ومعارك الديناصورات تزهق فيها أرواح الأبرياء والمستضعفين. ترى وسائل الإعلام وهى تمارس فكر السِفاح ليل نهار لتشويه

عقول المخدوعين بأنهم أحرارا فى اختيار من يحكمهم وكيف يحكمهم ، دون أن يشعروا أنهم قطعان مخدرة فى صفقات قذرة!

أى حرية وأى خيارات يملكها أصحاب العقول المشوهة عمدا وبفعل فاعل! لذلك حين تتأمل بعض نتائج التمثيليات التى تسمى بالمعارك الانتخابية ، ترى الأمواج المادية العاتية تقذف بممثل (سينمائى) على قمة السلطة المادية فى دولة كبرى ليحكم لمدة ثمانى سنوات! وترى الميل الغريزى لدى الدهماء يأتى بمراهقة رشيقة القوام أو حيزبون متصابية تأتى لقمة السلطة فى دولة كبيرة. والتشويه العقلى يتجسم فى الصورة الحقيقية للديموقراطية المشوهة ، ولكن العقل المشوه لا يرى ذلك التشويه – بل يألفه – فكيف يشعر الأعمى بعمى غيره! لقد حدث مؤخرا فى إحدى كيانات منطقة الشرق الأوسط أن ذهبوا بصناديق الانتخاب إلى السجون وإلى مستشفيات الأمراض العقلية!! والسؤال هنا : أى رؤية فكرية – لحسن توجيه البشرية – يملكها المجرم أو نزيل مستشفى الأمراض العقلية! وأى تَوجُه بئيس ذلك الذى تبلوره تلك العقول المريضة! اللهم لا سخرية ولا اعتراض.

لسنوات طويلة يستمر الخداع باسم الديموقراطية ومناصرة الضعفاء (عمال وفلاحين) فيتم حجز نصف المقاعد لممثليهم – المبرمجين – على موائد اللئام. وترى أحد المراهقين الكبار يعد ويمنى ويدلل الشواذ فى جولاته الانتخابية باسم الحرية الشخصية ، وتسن التشريعات التى تحمى الشذوذ فى بلدة تلقب بأم

الديموقراطية! وتري من يرشو ومن يتلقى الرشوة الانتخابية مقدما وعلنا بالملايين ، وترى الكيل بعشرات المكاييل ، والكذب يزهو بكثرة أعوانه الذين يندر أن يشكلوا النسبة التى تسمح لهم بممارسة الحكم إلا بالمهادنة والمداهنة والائتلاف الكاذب مع الخصوم الألداء. أين موقع العقل من قضية تلك بعض قبائحها! وهى قليل من كثير. أين موقع من بيده مقاليد السماوات والأرض فى عقول هؤلاء – إنه حقا صبور حليم – سبحانه وتعالى عما يصفون.

وهنا يبرز سؤال تلقائى من بعض القراء : ما هو البديل إذن؟ والجواب أن من أثير عقله ببعض ما فى هذا الكتاب وغيره يمكنه أن يبدأ فى التفكير فى موقع العقل من نظام الحكم ، وكم أتمنى لو توفر لى الوقت والقدرة على بلورة ذلك ، إن أذن ربى. فإنى لعلى قناعة بقلة جدوى النقد دون طرح البديل ، لأن الخطورة هنا تبدو فى تصور الكثيرين أن بديل الديمقراطية (دكتاتورية الطائفة) هى دكتاتورية الفرد – والعياذ بالله – لذلك يقبلونها بعيوبها ظنا منهم أنه ليس بالإمكان أبدع مما كان ، وذلك قصور فى الفكر يأباه العقلاء.

مطلوب نظام ديناميكى يُخضع الحاكم للمحاسبة فى أى وقت ، وليس مجرد الحد من سلطاتة ؛ لأن ما يتبقى منها قابل للتنمية ويكفى للبطش والفساد. مطلوب نظام له حدود لا يسمح لمخلوق بتجاوزها ، حدود يضعها غير ذى مصلحة فلا تخضع للأهواء ولا تحابى الأكثرية على حساب الأقليات ، أضعف الإيمان أن نطالب بتهذيب الديموقراطيات الحالية ، ويتعذر ذلك بدون تبصير

عقول من يمارسون الديموقراطية. ويصعب تصور أن تسمح قوى الطغيان بتحرير العقول فضلا عن تبصيرها ، لكن اليأس ليس من صفات المؤمنين ، ومقاومة الطغيان واجبة.

لا خلاف على أن استشارة السفيه – أو الرجوع إليه فى الأمور ذات الشأن – تعد من السفاهة التى لا تليق بالعقلاء. وبعبارة أخرى ليس من الصواب أخذ رأى إنسان فى قضية لا يلم بشىء من أبعادها. ومن الظلم والتضليل أن نطلب من أصحاب العقول المتواضعة والمشوهة ، نطلب منهم المفاضلة بين محترفى المكر ودهاقين السياسة ، أو بين نظام اقتصادى وآخر ، أو بين برنامجين انتخابيين. وكم سمعت ممن نالوا حظا من التعليم العالى والرافضين المشاركة فى الانتخابات من يقول : كيف أفاضل بين شخصين لم أقابلهما فى حياتى و لم أعرف عنهما ما يكفى للمفاضلة بينهما! وآخر يقول: إننى لم افهم شيئا من البرنامج الانتخابى الذى يطرحه فلان. وثالث يقول: كيف نضمن النزاهة! وفوق ذلك ألا يكفى ضعف اقبال الناخبين ليكون شهادة رفض غير مباشر لواقع ما يسمى بالديمقراطية! وهل جاء هذا الزفض من فراغ أو بدون سبب؟ إن مراكز الدراسات الأمريكية تؤكد أن نسبة التصويت فى الانتخابات الامريكية لا تتجاوز 25٪ ، وفى دول "الأحزان" تتدنى النسبة إلى 5٪ من جملة من يجب عليهم التصويت.

واجب المسلم

خلق الله الإنسان وأنعم عليه بنعم لاتحصى وفى مقدمتها نعمة العقل كوسيلة تمييز وحكم واختيار ، ولحكمة يعلمها - جل شأنه - أسند للإنسان مهمة الخلافة فى الأرض ، وسخر كل ما فى الأرض لخدمته وزوده برسالات الهدى ؛ لتوضح السبل والمسارات والمعالم والحدود - الخطوط الحمراء والخضراء - والمؤشرات والعواقب. وتعرضت الرسالات لما تعرضت له بكيد الشيطان للإنسان ، ولكن الله ضمن بقدرته حفظ الرسالة الخاتمة ؛ لتكون حجة - مكتوبة مقروءة (قرآن) - على كل البشر **يوم يقوم الناس لرب العالمين**.

لقد حمل الله المسلمين أمانة الدعوة إليه والتذكير به وبدينه منذ فجر الإسلام إلى آخر الزمان. فتبليغ هذه الرسالة للناس كافة واجب على المسلمين من أجل خير الإنسانية فى الخافقين. ويعلم الله بخصائص البشر فقد قدر للأمة الإسلامية أن تكون وسطا (عدولا خيارا) على سطح الأرض وبين الناس: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾ الآية 143 - سورة البقرة. تلك الأمة إمامها خاتم المرسلين ، وأفرادها أئمة الناس ومصابيح الهدى - من كل جنس ولون ووطن - وسط الظلمات ، ومن هنا كانت أهليتهم للشهادة على الناس.

وهنا نتوقف قليلا عند معنى الوسطية الذى وصف الله بـه هـذه الأمـة. فبعلـم الله فى خلقه هو الذى قدر التباين الشديد فى فكر وعقول البشـر – تبـاين فـى كل مجال – فقدر لهذه الأمة الشاهدة أن تكون وسـطاً ، أى وسـطى فـى كـل مجالات الخير وبكل المقاييس وبذلك تكون هى المرجع (الشاهد) ، كما هو ممثل بالمساحة الوسطى الفاتحة اللون فى شكل (1).

والوسط لغة هو ما بين طرفى الشىء الواحد ، والوسط من كـل شـىء أعدلـه ، والأوسط هو المعتدل من كل شىء. وقـد جـرت العـادة علـى أن قمـة الشـىء تكون فى وسطه ، فى موقع وسط بين أطرافه ، وموقـع سـيد القـوم يكـون فـى وسط مجلسهم وليس فى طرفه. وليس من المناسب أن يُفهم أن الوسـط يقصـد به هنا أنه حالة وسطى بين النقيضين ، بـين الحـق والبـاطل مثـلا ، أو بـين الخـير والشر ، لا ليس كذلك. لكن لأن طاقة الإنسان (المحـدودة) لا يمكـن أن تحقـق القيمة العظمى فى كل مجالات الخير ، إذن فيلزم أن تتوزع بينها فتتوسطها حتى لا تترك بعضها لكى تزيد من الاهتمام بالبعض الآخر ، فالمغالاة ومداومة الصـوم مثلا لا بد أن تكون على حساب واجبات كثيرة أخرى ، لذلك يلزم التوسط ، وقد ثبت النهى عن صيام الدهر.

والوسط يختلف عـن المتوسـط ؛ لأن المتوسـط أحـادى البعـد لا يسـع إلا نقطـة واحدة مساحتها صفر ، وذلك أشد الضيق والحرج ، أما الوسط فعديـد الأبعـاد ويشمل مساحة أوسع تكفى لنشـاطات وتفـاعلات التنـوع الطبيعـى ومروناتـه.

ونظرا لأصالة مصطلح الوسطية فقد تعمق فى الفهم الحديث ليدل على المساحة اللازمة لازدهار التنوع ، فيقال - مثلا - وسط المدينة ووسط البلد ووسط الأمواج ، ووسط المسجد ووسط النهار. والتوسط يوفر أفضل فرصة للتوازن النفسى ، ويجعل الرؤية والتقديرات أوضح وأحكم ما يمكن ، كما سنفصل ذلك فى فصل بعنوان الوعى والإدراك.

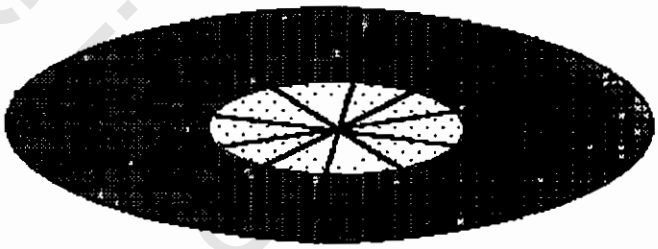

شكل (1). معنى الوسطية.

روى الإمام البخارى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اقرأ على القرآن ، فقلت يا رسول الله: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال : نعم فإنى أحب أن أسمعه من غيرى. فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً**﴾ فقال : حسبك الآن. فنظرت فإذا عيناه تذرفان - صلى الله عليه وسلم.

وإشفاقا على النفس وما ينتظرها من حساب دقيق (بمثقال الذرة) يتخيل الإنسان الموقف التالى يوم الحساب ، حين **يسأل الله الصادقين عن صدقهم**. فماذا سيكون حال أشباه الصادقين ، والكاذبين؟! حين يجادل "جورجتشوف" عن نفسه يوم الحساب فيقول : يارب إن بعض أتباع الرسالة الخاتمة لم يحسنوا عرضها علينا ، وكانت أفعالهم لا تدل على أن لديهم خيرا يمكن أن نستفيد به ، كانوا يقولون ما لا يفعلون ، بل إن بعضهم تبعنا فى ضلالنا. وتُذكر هنا عبارة سمعتها من أحد الأوروبيين ضمن نقاش ودى إذ يقول: "إننى أعرف أن لديكم أحدث طراز (Latest Version) من رسالات الأديان ولكن أحوالكم تُحَير!"

صحيح إن هذه الحجج الواهية لا تُنجى من وهبه الله عقلا يُستدل به عليه فعاند وأبى مجرد الاقتراب من الرسالة الخاتمة – التى هى رحمة الله للعالمين – ليتحقق بنفسه ، بل وقف منها موقف العداء – بسبب الحقد المغروس فيه – وطغى وصد عن سبيل الله ، وأرادها عوجا وحسابه على الله. أما الطرف الآخر حامل الرسالة الذى لم يحسن الدعوة إليها ، فقد ضرب الله له مثلا قرآنيا قاسيا يدمغ المقصر فى حمل الرسالة –عموما – بشدة الجهل والظلم وحتى التكذيب بالرسالة: **﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** الآية 5 – سورة الجمعة.

ياإلهى! أيحمل الإنسان اسما وهوية منسوبين للدين ويكون كالحمار والظالم والمكذب بالدين! ليته كان حمارا فقط ، حقا إنه فى أسفل سافلين. أين عقلك يا إنسان؟!

وحذرا من هول هذا الموقف نبذل ما يتيسر من جهد فى هذا الكتاب الذى يخاطب العقل البشرى ؛ إعذارا إلى الله وبرجاء العفو.

اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا.

obeikandl.com